القبيلــة

القبيلة هي عماد الحياة في البادية، بها يحتمي الأعرابي في الدفاع عن نفسه وعن ماله، حيث لا (شُرَط) في البوادي تؤدب المعتدين، ولا سجون يسجن فيها الخارجون عن نظام المجتمع، وكل ما هنالك (عصبية) تأخذ بالحق و(أعراف) يجب أن تطاع.

والرابط الذي يربط شمل القبيلة ويجمع شتاتها هو (النسب). ويفسر ذلك بارتباط أبناء القبيلة كلها بنسب واحد وبدم واحد وبصلب جدّ أعلى من صلبه انحدر أفراد القبيلة في اعتقادهم. ولهذا نجد أهل الأنساب يرجعون نسب كل قبيلة إلى جدّ أعلى، ثم يرجعون أنساب الجدود، أي أجداد القبائل إلى أجداد أقدم، وهكذا، حتى يصلوا إلى جدي العرب: قحطان وعدنان. والقبيلة في عرف علماء اللغة جماعة من أب واحد، والقبائل في نظرهم من قبائل الرأس لاجتماعها، أو من قبائل الشجرة وهي أغصانها، فهي إذن جماعة من الناس تضم طوائف أصغر منها، وهي تنتمي كلها إلى أصل واحد وجذر راسخ، ولها نسب مشترك يتصل بأب واحد هو أبعد الآباء والجد الأكبر للقبيلة.

فالرابط الذي يربط بين أبناء القبيلة ويجمع شملها ويوجد بين أفرادها هو (الدم)، أي النسب. والنسب عندهم هو القومية ورمز المجتمع السياسي في البادية. والقبيلة هي الحكومة الوحيدة التي يفقهها الأعرابي، حيث لا يشاهد حكومة أخرى فوقها. وما تقرره حكومته هذه من قرارات يطاع وينفذ، وبها يستطيع أن يأخذ حقه من المعتدي عليه.

وهذه النظرة الخاصة بتعريف القبيلة هي التي حملت أهل الأنساب والأخبار على إطلاق لفظة (القبيلة) على الحضر أيضاً. مع أنهم استقروا وأقاموا. فقريش عندهم قبيلة، والأوس، والخزرج قبيلة، وثقيف قبيلة. ذلك لأن هؤلاء الناس وإن تحضروا واستقروا وأقاموا، وتركوا الحياة الأعرابية، إلا أنهم بقوا على الرغم من ذلك على

مذهب أهل الوبر ودينهم في التمسك بالانتساب إلى جد أعلى وإلى أحياء وبطون. وفي إجابة النخوة والعصبية، وما شابه ذلك من سجايا البداوة، فعدوا في القبائل، وإن صاروا حضراً وأهل قرار، وقد طلقوا التنقل وانتجاع الكلأ.

وأبناء القبيلة هم إخوة من دم واحد. يسري في أجسامهم جميعاً ما دامت القبيلة حية باقية. ووحدة الدم هذه هي الرابط الذي يجمع شمل القبيلة. وهي صلة رحم، وعصبية، والحكومة الصحيحة التي يجب أن تطاع.

والعربي مثل بقية الساميين لم يفهم الدولة إلا أنها دولة القبيلة. وهي دولة صلة الرحم التي تربط الأسرة القبلية. دولة العظم واللحم، دولة اللحم والدم، أي: دولة النسب. فالنسب هو الذي يربط بين أفراد الدولة ويجع شملهم. وهو دين الدولة عندهم وقانونها المقرر المعترف به. وعلى هذا القانون يعامل الإنسان. وبالعرف القبلي تسير الأمور. فالحكام من القبيلة، وأحكامهم أحكام تنفذ في القبيلة، إذا كانت ملائمة لعقلية والبيئة، وهذا هو ما يحدث في الغالب، تصير سنّة للقبيلة، نستطيع تسميتها بـ (سنة الأولين). ووطن القبيلة هو بالطبع مضارب القبيلة حيث تكون، وحيث يصل نفوذها إليه، فهو يتقلص ويتوسع بتقلص وبتوسع نفوذ القبيلة[1].

إن أسماء القبائل لا تعني بالضرورة أنها أسماء أجداد حقيقيين عاشوا وماتوا. فبينها أسماء مواضع، مثل غسان، وبينها أسماء أصنام مثل (بنو سعد العشيرة) وبينها أسماء أحلاف مثل (تنوخ) وبينها نعوت وألقاب.. إلى آخر ذلك من أسماء قبائل وصلت إلى علم الأنساب، فأوجدوا لها معاني واعتبروها أسماء رجال حقيقيين تزوجوا ونسلوا منهم من كان عاقراً فلم ينسل، فذهب أثره، ولم تبق له بقية.

والمفهوم من لفظة (القبيلة) في العادة: القبائل التي تتألف من عمائر وما وراء العمائر من أقسام: فإذا ذكرت القبيلة انصرف الذهن إلى آلاف من البيوت تجتمع تحت اسم تلك القبيلة.

ويرى علماء اللغة العربية أن هناك تجمعات، هي في نظرهم أكبر حجماً من القبيلة أطلقوا عليها (الشعوب). فذكروا أن الشعوب فوق القبائل، ومثاله: بنو قحطان

١- جواد علي، ج٤، ص ٣١٣-٣١٥.

وبنو عدنان، فكل منهما شعب. وما دونهما قبائل. وذهب بعض منهم إلى أن (الشعوب) للعجم، فإن الشعوب بالنسبة لهم، مثل القبائل للعرب، ومنه قيل للذي يتعصب للعجم (شعوبي)، وقيل: بل هي للعرب وللعجم. والذي عليه أكثر علماء الأنساب، أن الشعب أكبر من القبيلة، وأن الشعب أبو القبائل الذي ينتسبون إليه، أي يجمعهم ويضمهم[1].

ويلي الشعب في اصطلاح أهل النسب: القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة. فالشعب الأبعد مثل عدنان وقحطان، والقبيلة مثل ربيعة ومضر، والعمارة مثل قريش وكنانة، والبطن مثل بني عبد مناف وبني مخزوم، ومثل بني هاشم، وبني أمية، والفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس. وجعل ابن الكلبي مرتبة بين الفخذ والفصيلة هي مرتبة العشيرة وهي رهط الرجل[2].

وقسم النويري النظام القبلي عند العرب إلى عشر طبقات. وابتدأ بـ (الجذم) وهو الأصل: وهو قحطان وعدنان، والطبقة الأولى. ثم الجماهير، وهي الطبقة الثانية، ثم الطبقة الثالثة: الشعوب، الطبقة الرابعة القبيلة، وهي التي دون الشعب تجمع العمائر، ثم الطبقة الخامسة: العمائر، وهي التي دون القبائل، وتجمع البطون، ثم الطبقة السادسة: البطون، وهي التي تجمع الأفخاذ، والطبقة السابعة: الأفخاذ. وهي أصغر من البطن. والفخذ تجمع العشائر. والطبقة الثامنة: العشائر، واحدها عشيرة، وهم الذين يتعاقلون إلى أربعة آباء. والطبقة التاسعة: الفصائل، واحدها فصيلة، وهم أهل بيت الرجل وخاصته، والطبقة العاشرة: الرهط، وهم الرجل وأسرته[3].

ما ذكرته يمثل مجمل آراء علماء النسب عند العرب في موضوع كيان القبيلة وفروعها التي تتفرع منها درجة درجة، حتى تصل إلى البيت، الذي يتكون من الأب والأم وأولادهما.

وقد رأينا أنهم قد اختلفوا فيا بينهم وتباينوا في الترتيب وفي العدد. منهم من يقدم، ومنهم من يؤخر، ومنهم من يزيد، ومنهم من ينقص. واختلافهم هذا فيما بينهم، هو دليل يشعرنا أن التقسيم المذكور لم يكن تقسيماً ثابتاً عند كل القبائل وأنه لم

١- جواد علي، ج٤، ص ٣١٦-٣١٧.

٢- بلوغ الأرب، ج ٣، ص ١٨٧-١٨٩، العقد الفريد، ج٣، ص ٢٨٣.

٣- نهاية الأرب، ج ٢، ص ٢٨٤-٢٨٥.

يكـن تقسـيماً جاهليـاً بـل كـان تقسـيماً محليـاً اختلـف بـين قبيلـة وأخـرى، وأن أسـمـاء أجزاء القبيلـة، لم تكـن أسمـاء عامـة متبعـة عنـد الجميـع، أي أسمـاء مقـررة عنـد كـل قبيلة، بل هي أسماء أخذها العلمـاء مـن هنـا وهنـاك، ولهـذا وقـع بينهم هـذا الاخـتلاف، ولو كان عند الجاهليين تقسيم واحد لأجزاء القبيلة فما كان من المعقول أن يقع علمـاء النسـب واللغـة فيمـا رأينـا مـن تبـاين واخـتلاف، ولوجـب اتفـاقهم في الترتيـب وفي العـدد. فالتقاسـيم المـذكورة إذن، هـي مـن وضـع وترتيـب وجمـع علمـاء النسـب واللغـة في الإسلام[1].

وأصغر وحدة من وحدات القبيلة هي: الأسرة، أي البيت. فهي نواة القبيلـة وبـذرتها وجرثومتهـا، ومـن نموهـا ظهـرت شـجرة القبيلـة - الـتي يختلـف حجمهـا وتختلـف كـثـرة أغصانها وفروعها باختلاف منبت الشجرة والظـروف والعوامـل الـتي أثـرت في تكوينهـا. من بذرة جيدة ومن تربة صالحة ومـاء كـاف. والبيت هـو نـواة القبيلـة عنـد العـرب، وهـو نواة القبيلة عند كل الشعوب القبلية. بل هو نواة المجتمع في كل مجتمع إنسـاني.

والقبائـل مثـل الـدول، أنمـاط ودرجـات. منهـا قبائـل نشـطة تعتمـد علـى نفسـها في الدفاع عن كيانها، ومنها قبائل أقل مـن هـذه القبائـل شـأناً وقـوة تتحـالف مـع غيرهـا في الدفاع عن نفسها، لتكون من الحلف كتلة قبلية مهابة. وقبائـل صـغيرة ليسـت لهـا قـدرة على الدفاع عن حياضها لوحدها، لذلك تركن إلى التحالف مع قبائل أخـرى أقـوى منهـا لتحافظ بذلك على وجودها.

والقبائـل القويـة هـي القبائـل الكـثيرة العـدد والمـوارد. وإذا ترأسـها سـادات ذوو كفاءة وقدرة، هابتها القبائل الأخرى، وسادت على غيرها، وكونت منهـا ومـن القبائـل الـتي تسـتولي عليهـا مملكـة، كـالـذي فعلتـه كنـدة. ولم يـورد العلمـاء شـروطاً في الحـد الأدنى أو الحـد الأكـبر للقبيلـة. وذلـك مـن ناحيـة عـدد العشـائر والبطـون والأفخـاذ، فلـم نعثر على حد معين إذا بلغته جماعة من الناس وجب إطلاق لفظة (قبيلـة) عليهـا. بـل نجـد علمـاء النسـب يطلقونهـا أحيانـاً علـى بطـون وأفخـاذ فيقولـون: قبائـل قـريش، ويـذكرون أمسـاءهـا، بينمـا هـي في الواقـع (آل) أو أرهـاط وبطـون. ويقـال للقبائـل الـتي تسـتقل بنفسـها

١- جواد علي، ج ٤، ص ٣٢٠.

وتستغني عن غيرها (الأرحى). وعرفت القبيلة التي لا تنضم إلى أحد بـ (الجمرة). ذكر أنها قبيلة تقاتل جماعة قبائل. وكل قبيل انضموا فصاروا يداً واحدة ولم يحالفوا غيرهم، فهم جمرة. وقيل: الجمرة كل قوم يصبرون لقتال من قاتلهم لا يحالفون أحداً ولا ينضمون إلى أحد. تكون القبيلة نفسها جمرة تصبر لقراع القبائل كما صبرت عبس لقبائل قيس.

وذكر أن الجمرة ألف فارس، أي القبيلة التي يكون فيها ذلك العدد من الفرسان، وقيل ثلاثمائة فارس أو نحوها. والذي يستنتج من آراء علماء اللغة والنسب في تعريف (الجمرة)، أنها القبائل المقاتلة القوية التي تعتمد على نفسها في القتال، ولا تركن إلى غيرها، ولا تحالف غيرها لتستفيد من هذا الحلف في قراع القبائل[1].

ولكل قبيلة أرض تعيش عليها وتنزل بها وتعتبرها ملكاً لها، تنتشر بها بطونها وعشائرها، ولا تسمح لغريب النزول بها والمرور بها إلا بموافقتها وبرضاها. وقد اختص كل بطن منها بناحيته فانفرد بها واعتبرها أرضاً خاصة به.

وتكون الأرض التي تحل القبيلة بها (منزلاً) لها، و(منازل) لأبنائها الذين ينزلون بها. يضربون بها خيامهم. فتكون الأرض مضارب لها. تستوطنها وتقيم بها وتصير وطناً لها، أي دار إقامة، ما دامت تقيم بها. وموضع بيوتها. لذلك يعبر عن الأرض التي تقيم بها القبيلة بـ (بيوت القبيلة) وبـ (بيوت العشيرة)، لأنها مضرب البيوت[2].

تمتد أرض القبيلة إلى المواضع التي تصل بيوتها إليها. فما يقع إلى الداخل فهو من موطن القبيلة وما وقع خارج نفوذ القبيلة خرج عن مواطنها.

وكانت تعيّن الحدود بالظواهر الطبيعية البارزة مثل أودية أو رمال أو جبال أو غير ذلك. ونظراً لعدم إمكانية تثبيت مثل هذه الحدود، صارت سبباً من أسباب النزاع المستمر بين القبائل.

أما مواضع الماء في القبيلة فقد تتفق البطون فيما بينها على حقوق السقي الذي قد يؤدي إلى نزاع في أكثر الأحيان، إذا لم تراع فيه هذه الحقوق، ولا سيما في أيام

١- جواد علي، ج٤، ص ٣٣٢.

٢- المصدر السابق، ص ٣٤٢.

القيظ وانحباس المطر، حيث تشتد الحاجة إلى الماء، ويصير افتقاده سبباً في هلاك الأنفس والمال. هذا من حيث المياه العامة، أما المياه الخاصة للسادة والرؤساء فلا يجوز الاستقاء منها إلا بإذن[1].

سيد القبيلة أو (الرئيس):

لكل قبيلة سيد كالملك في مملكته، هو المرجع المسؤول عن أتباعه في السلم والحرب. يقصده أصحاب الحاجات من أبناء القبيلة. كما يحق لهذا الرئيس أن يجمع شمل عدة قبائل ويترأسها وينصب نفسه ملكاً عليها كالذي فعله ملوك كندة وغيرهم من أكثر سادات قبائل العرب الذين عرفوا كيف يستغلون إمكانات قبيلتهم، سخروها في سبيل الحصول على الملك. ويذكر علماء اللغة أن السيد يطلق على الرب والمالك الشريف والفاضل والكريم والحليم والزوج والمقدم والرئيس.

وسيد القبيلة هو رئيسها. تقول العرب: فلان سيدنا، أي رئيسنا الذي نعظمه، ونقول: ساد قومه[2].

كما وردت كلمة زعيم بمعنى سيد القوم والجمع زعماء. ووردت الزعامة بمعنى الشرف والرئاسة على القوم وحظ السيد من المغنم[3].

وسيد القبيلة، أو شيخ القبيلة رئيس بالعصبية، أي أن القبيلة هي التي تختار من أفرادها رجلاً تقدمه للرئاسة عليها ثم تطيعه بإرادتها وتطوعاً منه.

والمفروض أن يكون شيخ القبيلة، كما تدل كلمة «شيخ» كبيراً في السن. فإذا كان صغير السن ثم اتفق أن كانت له حكمة وشجاعة وثروة مضافة إلى شرف أصل قدمته قبيلته للرئاسة، ومصداق ذلك قول الخنساء ترثي أخاها صخراً:

طويل النجاد رفيع العماد ... ساد عشيرته أمردا

يحمله القوم ما عالهم ... وإن كان أصغرهم مولدا

١- د. حسين الحاج حسن، حضارة العرب في الجاهلية، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ١٩٨٤، ص ٧٠-٧١.

٢- السان، ج٣، ص ٢٢٨ (سَوَد).

٣- تاج العروس، ج٨، ص ٣٢٤، (زعم).

والمطلوب ممن يترأس قبيلته أن يتحلى بخلال حميدة وصفات طيبة تعد حيوية في بناء المجتمع البدوي. وقد عددها الجاحظ فقال: «كان أهل الجاهلية لا يسودون إلا من تكاملت فيه ست خصال: السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان».

وقد سئل قيس بن عاصم: بما سوّدك قومك؟ فأجاب: «ببذل الندى وكف الأذى ونصرة المولى وتعجيل القرى».

وقد رويت الأخبار الكثيرة تمتدح سخاء الرؤساء وخاصة في أوقات الضيق والشدة، وهذا أمر مهم في المحيط البدوي المعرض لعاديات الدهر ونكبات الطبيعة.

والبيان هو من الأمور الضرورية التي يجب أن يتحلى بها سيد القبيلة وذلك للإفصاح عن الرأي وقوة الإقناع والتأثير وحسن الإدارة في مجتمع ليس فيه سلطة إلزامية وحكومة منظمة. والناس في الجاهلية كانوا أحوج إلى ما يستنهض هممهم، ويفتح أعينهم، ويقيم قاعدهم، ويشجع جبانهم، ويشد جنانهم، ويثير أشجانهم، ويستوقد نيرانهم، صيانة لعزهم أن يستهان، وتشفياً بأخذ الثأر، وتحرزاً من عار الغلبة وذل الدمار، فكانوا أحوج إلى الخطب بعد الشعر لتخليد مآثرهم وتأييد مفاخرهم[1].

ولا بد للرئيس من عصبية داخل العشيرة وقرابة تشد أزره وتعينه على تنفيذ مطالبه، ومثل هذا السند يعتمد على القوة العددية وعلى الحسب والشرف. ومثل هذا الشرف لا يتوقف على فعال الخير فقط، بل على نقاوة الدم أيضاً. وعلى هذا فلا تتم الرئاسة إلى للصليبية (أبناء القبيلة الصرحاء بالنسب) أما الموالي والحلفاء فلا مجال لهم للحصول عليها.

وعلى الرئيس واجبات كثيرة نذكر أهمها:

عليه أن يعين الضعفاء ويؤاسي المنكوبين وينزل في بيته الضيوف الوافدين. وقد يساعده في ذلك بعض رجالات العشيرة المقربين. وعليه أن يدير المناقشات في مجلس العشيرة، ويتولى المفاوضات الدبلوماسية مع القبائل الأخرى. ولكن لم يكن لديه سلطة قانونية لا قرار رأي دون آخر إلا بقدر ما له من قوة في الشخصية ومن حجة في الإقناع.

١- د. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ شبه الجزيرة العربية، ص ٣٦٢-٣٦٣.

وعليه أن يفض المنازعات ويحكم في الخلافات إذا لجأ إليه المتخاصمون، كما قد يلجأ المتخاصمون إلى غيره من الحكام والعارفة الذين اشتهروا بعدالتهم ودقة حكمهم سواء في العشيرة أو خارجها.

وقد يقود العشيرة في الحروب إلا أنه لا يحتكر هذا، فقد يظهر قائد مبرز أو فارس شجاع يحل مكانه في القيادة.

وكان العرف يقر لسيد القبيلة ببعض الحقوق، كما كان يلقي على عاتقه بعدد من الواجبات. فمن حقوق سيد القبيلة من الغنائم التي تغنمها القبيلة في حروبها مع القبائل الأخرى:

١- المرباع:

وهو حق سيد القبيلة في الحصول على ربع جميع الغنيمة. ولا شك أن المرباع كان يشكل مورداً مالياً مهماً لسيد القبيلة، يعينه في الوفاء بالتزاماته المالية المتعددة.

٢- الصفايا:

وهو ما يصطفيه سيد القبيلة لنفسه من الغنيمة من فرس أو سلاح أو جارية أو غير ذلك من الأموال قبل القسمة كالسيف اللهذم، والفرس العتيق، والدرع الحصينة، والشيء النادر.

٣- النشيطة:

وهي أنه كان للرئيس أن ينشط عند قسمة المتاع فيأخذ العلق النفيس يراده إذا استحلاه. وقيل أن النشيطة هي ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصير إلى بيضة القوم.

٤- الفضول:

وهي فضول المقاسم، فقد يتبقى بعد القسمة شيء لا تمكن قسمته، فيؤول إلى سيد القبيلة، كاللؤلؤة والسيف والدرع والبيضة والجارية، وغير ذلك[1]، وجمع أحد شعراء الجاهلية هذه الحقوق في بيت واحد من الشعر:

لك المرباع منها والصفايا   وحكمك والنشيطة والفضول

١- د. محمد سلام زناتي، نظم العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ص ٤٨-٤٩.

وإذا كان من حق شيخ القبيلة أن يكون حكمه نافذاً على جميع أفراد قبيلته إلى جانب امتيازاته التي ذكرناها، فقد كان من النادر أن يستبد في حكمه وفي رئاسته للقبيلة، لأنه كان مضطراً إلى مبايعة أهل الرأي في القبيلة. فسيد القبيلة لم يكن يتمتع بسلطة إصدار قواعد قانونية ملزمة، فلم تكن له في الأغلب، سلطة تشريعية أو سلطة تنفيذية ذات بال. وكذلك لم يكن يتمتع بسلطة قضائية. فالقضاء كان بين يدي حكام يختارهم الخصوم، ولم تكن قراراتهم تنفذ بالقوة، بل كان المحكوم ضده يقوم بتنفيذها طواعية. وكان من الممكن الالتجاء إلى سيد القبيلة بوصفه حكماً، لكنه في هذه الحالة لم يكن يتمتع بأكثر مما يتمتع به غيره من الحكام، فم تكن له سلطة تنفيذ قراراته جبراً. وكانت سلطته تعتمد في الدرجة الأولى على ما يتمتع به من مكانة وما يحظى به من احترام وتبجيل.

وكانت وسيلته لتحقيق مشيئته هي الإقناع أكثر منه الإجبار، والتأثير الشخصي أكثر منه القوة المادية. وفضلاً عن ذلك فإن رئيس القبيلة لم يكن ينفرد باتخاذ القرارات في المسائل المهمة أو المصيرية، بل كان ملزماً بدعوة زعماء العشائر والشخصيات البارزة في القبيلة إلى مجلس يناقشون فيه المسائل المطروحة، ويتخذون في شأنها ما يشاؤون من قرارات، ولم يكن هذا المجلس مجرد مجلس استشاري، وإنما كان مجلساً له وزنه وثقله. ولم يكن في وسع سيد القبيلة تجاهل هذا المجلس، واتخاذ قرار مغاير لما استقر عليه الرأي فيه. بل إن سيد القبيلة لم يكن يتمتع في هذا المجلس بأكثر مما يتمتع به غيره من الأعضاء[١].

عناصر القبيلة:

١- النسب:

النسب أمر عُرفي أكثر منه أمراً طبيعياً، وأن الذي يجمع بعض أفراد القبيلة إلى بعض إنما هو الشعور بالصلة وفائدة التعاون على تحصيل الرزق ورد العدو ونيل الحكم حيثما يكثر عدد القبيلة وتزداد قوتها، هذا الشعور في سبيل هذه الأهداف يسمى (العصبية)[٢].

١- د. محمد سلام زناتي، نظم العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ص ٥٠-٥١.

٢- د. عمر فروخ، العرب في تاريخهم وحضارتهم، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠ ص ٦٧-٦٨.

كان ابن القبيلة يعتز بنسبه اعتزازاً كبيراً، إذ إنه هو الذي يحدد هويته، فمن دونه يتحول إلى «دعيّ» وهو من ينتسب إلى غير قبيلته أو قومه، وندر أن اعتزت أمة بأنسابها مثل العرب، ومن ثم يمكن الجزم بأن النسب «ملمح» عربي أصيل ينفرد به العرب دون سائر الناس. وقد تخصص بعض الأشخاص في هذا النوع من الفن، فن حفظ الأنساب، وكانت لهم مكانة ومهابة، منهم أبو بكر الصديق «رضي الله عنه» الذي اختير عضواً في حكومة الملأ (ملأ قريش) وتولى «الأشناق» وهي الديات والمغارم بسبب أنه كان «نسابة» أي عالم بالأنساب، ومن ثم كان في مقدروه تحديد الديات والمغارم حسب مكانة المجني عليه وما إذا كان محصناً أو حليفاً أو لصيقاً أو زنيماً.. الخ، ومعرفة الجاني ومكانته في القبيلة التي ينتمي إليها، وحول النسب تحلقت الظواهر الاجتماعية مثل الخلع والولاء والحلف.. الخ، كذلك تترتب على النسب آثار اجتماعية لا يمكن التهوين من شأنها. منها الميراث، وتحديد مكانة الفرد في القبيلة، فإن كان لصيقاً أو زنيماً فلا يحق له أن يشارك في «مجلس القبيلة» أو يتولى رئاستها، وأيضاً الكفاءة في الزواج، فالمولى لا يحق له الزواج من امرأة ذات نسب صريح، ونشير هنا إلى أن هذه الكفاءة انتقلت إلى الفقه الإسلامي فلا يجوز لغير الهاشمي أن يتزوج هاشمية، وكذا تحديد المهور، إذ إن مهر العربية الصريحة يفوق بما لا يقاس مهر غيرها.

ومن منظور النسب تضم القبيلة ثلاثة أصناف:

أ - صرحاء النسب:

وهم طبقة الأشراف وهم يتفاوتون في الشرف بتفاوت بيوتهم في الحسب.

ب - الموالي أو اللصقاء:

وهم الملتصقون بالقبيلة بواسطة الجوار أو الحلف أو الاصطناع.

ج - العبيد المسترقون:

وهم في الغالب أسرى الحروب والغارات.

فالنسب الشريف الصريح إذا أضيفت إليه الخلال الحميدة تحقق معنى الحسب، وكلاهما من شروط الرئاسة والسؤدد في مجتمع شبه الجزيرة العربية، وقد فطن «القرشيون» إلى ذلك من وقت مبكر فبجانب نسبهم الصريح الشريف حرصوا أشد ما

يكون الحرص على اكتساب الخلال الحميدة والسجايا الرفيعة والأخلاق العالية والصفات الممتازة فتحقق لهم الحسب المنيف، وتحفظ لنا كتب السيرة الألقاب التي كانت تطلق على مؤسسي «دولة قريش» والتي تقطع بأنهم كانوا يتمتعون بنسب شريف وحسب منيف أهلهم لما وصلوا إليه من مجد، فقد كان هاشم (من أحسن الناس وأجملهم وكانت العرب تسميه «قدح النضار» و«البدر»، وكان أخوه المطلب بن مناف (ذا شرف في قومه وفضل وكانت قريش إنما تسميه «الفضل» لسماحته وفضله)، وكانوا يسمون بني عبد مناف بـ «المغيرات» مدحاً لهم وتعظيماً. أما عبد المطلب الجد المباشر لمحمد (ﷺ) فلقد تعددت ألقابه فهو: «الفياض» و«الفضل» و«مطعم الطير» و«شيبة الحمد»: بنو شيبة الحمد الذي وجهه يضيء ظلام الليل كالقمر البدر. وهكذا تكاملت في قيادات قريش النسب الشريف والحسب الرفيع مما لم يتح لأي قبيلة أخرى من قبائل العرب وكان ذلك أحد الدعامات البارزة التي ساهمت في ترسيخ الدولة التي أقامها الحفيد محمد (ﷺ) في يثرب[1].

٢- الاستلحاق:

والاستلحاق، هو أن يستحلق إنسان شخصاً فيلحقه بنسبه، ويجعله في حمايته ورعايته، أي في عصبيته. وقد يكون الرجل صريحاً معروف النسب، وقد يكون أسيراً أو مولى أو عبداً، فيسميه مولاه وينسبه إليه.

ومن هذا القبيل ما كان يفعله أهل الجاهلية من استلحاق أبناء الإماء البغايا بهم. وذلك أنه كان لأهل الجاهلية إماء بغايا وكان سادتهن يلمون بهن، فإذا جاءت إحداهن بولد ربما ادعاه السيد والزاني، فيقع خلاف بينهما على الولد. وقد وقع مثل هذا الخلاف في أيام الرسول، في أول زمان الشريعة، فقضى الرسول بإلحاقة بالسيد، لأن الأمة فراش كالحرة، فإن مات السيد ولم يستلحقه ثم استلحقه ورثته بعده لحق أبيه. وفي ورثته خلاف[2].

١- خليل عبد الكريم، قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، ط١، سينا للنشر، القاهرة ١٩٩٣، ص ١٦٦-١٦٧.

٢- د. جواد علي، ج ٤، ص ٣٥٨.

٣- الدعيّ:

ويقال للمستلحق (الدعيّ). والدعي المنسوب إلى غير أبيه. و(الدعوة) في النسب أن ينتسب الإنسان إلى غير أبيه وعشيرته وقد كانوا يفعلونه فنهي عنه وجعل الولد للفراش. ومن هذا القبيل المتبنى الذي تبناه رجل فدعاه ابنه ونسبه إلى غيره. ويكون حكم الدعيّ من الناحية القانونية في حكم النسب الصحيح والنبوة الشرعية عند الجاهليين، لذلك كان الجاهليون يورثون الأبناء[١].

ويقال للدعي: المخضرم. وقيل هو من لا يعرف أبوه أو أبواه ورجل مخضرم أسود وأبوه أبيض، أو هو من ولدته السراري. وذلك ذم في الإنسان.

ويقال رجل (خلط ملط)، بمعنى: مختلط النسب. وذكر أن الملط الذي لا يعرف له نسب ولا أب. وأما خلط، فإما بمعنى المختلط النسب، وإما بمعنى ولد الزنا. والخليط المشارك في حقوق الملك كالشرب والطريق ونحو ذلك. ومنه الحديث: الشريك أولى من الخليط، والخليط أولى من الجار. والشريك المشارك في الشيوع. والخليط القوم الذين أمرهم واحد[٢].

٤- الجوار:

وللجوار صلة كبيرة بالنسب وبالعصبية عند العرب، فقد يتوثق الجوار، وتتقوى أواصره فيصير نسباً، فيدخل عندئذ نسب (المستجير) بنسب (المجير)، ويصير وكأنه نسب واحد، هو نسب (المجير). وقد اندمجت بـ (الجوار) أنساب كثيرة من القبائل الصغيرة، أو القبائل التي تشعر بخوف من قبيلة أخرى أكبر منها، فتضطر إلى طلب (جوار) قبيلة أكبر منها، لتدافع عنها، ولتكون بذلك قوة رادعة تحمي حياتها وتحافظ على نفسها ومالها بهذا الجوار.

وهو من السنين التي حافظ عليها الجاهليون، واعتبروها كالقوانين. فإذا استجار شخص آخر، أو استجارت قبيلة أخرى، اكتسب هذا الجوار صيغة قانونية، ووجب على المجير المحافظة على حق الجوار. وإلا نزلت السبة بالمجير، وازدراه الناس.

١- الأغاني ج١٧، ص ٩٤.

٢- تاج العروس ج ٥، ص ١٣٢ (خلط)، ٥/٢٢٦، (ملط).

ويكتسب الجوار حكمه بإعلان الطرفين قبولهم له على الملأ، في أماكن الاجتماع في الغالب، في مثل المواسم من حج أو سوق. فإذا أعلن ذلك، وعلم الناس الخبر، صار المجار في ذمة المجير، وترتب على المجير أن يكون مسؤولاً عن كل ما يقع على المستجير وما يصدر منه.

وقد ورد في القرآن الكريم:

﴿ . . . وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ . . . ﴾[1]

والجار ذو القربى هو نسيبك النازل معك في الحواء، ويكون نازلاً في بلدة وأنت في أخرى، فله حرمة جوار القرابة. والجار الجنب أن لا يكون له مناسب فيجيء إليه ويسأله أن يجيره، أي يمنعه فينزل معه، فهذا الجار الجنب له حرمة نزوله في جواره وركونه إلى أمانه وعهده. لأنه جاوره وإن كان نسبه في قوم آخرين ولا قرابة له به.

وكان سيد العشيرة إذا أجار عليها إنساناً لم يخفروه. وإذا دخل قبته أو جفاءه أو دار حول خيمته، ونادى بالجوار والأمان صار آمناً. وقد وجب على صاحب ألقبة أو الخباء أو الخيمة حمايته، حتى وإن كان من سائر أبناء القبيلة.

والجار المجير والمفيد واحد. ومن عاذ بشخص استجار به. ومن هذا القبيل استجارة أهل الجاهلية بالجن. (قيل: إن أهل الجاهلية كانوا إذا نزلت رفقة منهم في واد، قالت: نعوذ بعزيز هذا الوادي من مردة الجن وسفهائهم. أي نلوذ به ونستجير)[2].

٥- المؤاخاة:

وتكون المؤاخاة بين الأفراد كما تكون بين الجماعات، كالعشائر والقبائل. وهي تدعو إلى التناصر والمؤازرة والمساعدة. وتؤدي إلى الموارثة. وخير مثل على المؤاخاة، ما فعله الرسول يوم مقدمه المدينة من مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار لتوحيد الكلمة وليساعد بعضهم بعضاً.

ولا يشترط في المؤاخاة أن تكون بين أعراب وأعراب، أو بين حضر وحضر، إذ يجوز أن تعقد أيضاً بين العرب والأعراب، أي بين الحضر والبدو. لأن المؤاخاة عقد،

١- سورة النساء: الآية ٣٦.

٢- جواد علي، ج٤، ص ٣٦٠-٣٦١.

والعقد يقع بين كل الناس، كما قد تقع بين عربي وأعجمي، فقد آخى الرسول بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء.

٦- الموالي:

والمولى: الولي والعصبة والحليف وابن العم والأخ والابن وابن الأخت والعصبات كلهم والجار والشريك. فاللفظة إذن معان عديدة، أهمها بالنسبة لنا، أن المولى: العبد، أي المملوك الذي يمن عليه صاحبه، بأن يفك رقبته، فيعتقه، ويصير المملوك بذلك مولى لعاتقه. والموالي أنواع. موالي عتق وموالي عتاقه، وهو الرقيق أو الأسير الذي تفك رقبته بعتقه.

والموالي مهما كانوا: عرباً أو عجماً، كانوا أقل شأناً في مجتمعهم من الأحرار. إذ نظر إليهم على أنهم دون العرب الأحرار في المكانة. ولهذا فقلما زوج الأحرار بناتهم للموالي. حتى ضرب بهم المثل في القلة والذلة ولا سيما إذا كان الإنسان مولى موالي. فقيل: (مولى الموالي)، قيل ذلك في الإسلام أيضاً[(١)].

٧- الأحلاف:

وكان للأحلاف شأن خطير في حياة الجاهليين. والحلف في اصطلاح علماء اللغة العهد بين القوم، والحلف والمحالفة: المعاهدة، وأصله اليمين الذي يأخذ بعضهم من بعض بها العهد، ثم عبر به عن كل يمين. والمحالفة أن يحلف كل للآخر. فمعنى الحلف في الأصل المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق. وتحالفوا بمعنى تعاهدوا وعقدوا اتفاقاً وعهداً، وتآخوا على العمل يداً واحدة، وقد حالف الرسول بين المهاجرين والأنصار، أي آخى بينهم.

وقد يتحالف فريقان من قبيلتين مختلفتين ويتعايشان ثم يصبحا مع الأيام كأنهما من قبيلة واحدة، ويدخل نسب الفريق الأضعف في نسب الفريق الأقوى[(٢)].

وقد أشارت كتب اللغة إلى جماعة من الموالي والعبيد تعربت واستقرت فصارت من العرب، وكانت من الرقيق المشترى من الخارج. وقد ضاعت أنساب جماعات كثيرة غيرهم بامتزاجها بالعرب ودخولها فيهم فصاروا في عداد العرب الصرحاء، وأوجدوا لهم

١- جواد علي، ج٤، ص ٣٦٩.

٢- د. عمر فروخ، العرب في تاريخهم وحضارتهم، ص ٦٧.

نسباً هو نسب من اختلطوا بهم وانتسبوا إليهم بالولاء. وقد نسي ذلك الولاء بمرور الزمن وتقادم العهد فأصبح نسباً وأصلاً[1].

ويكون الحلف بين الأفراد، كما يكون بين الجماعات والحكومات، فيتحالف الأفراد بعضهم مع بعض، ويعلن ذلك الحلف ليكون معلوماً بين الناس، وتتحالف القبائل بعضها مع بعض، ويعلن حلفها هذا ليكون معلوماً عند أفرادها وعند القبائل الأخرى، وتتحالف الحكومات: حكومات عربية مع حكومات عربية، أو حكومات عربية مع حكومات أعجمية.

والفكرة التي حملت العرب على عقد الأحلاف، هي نفس الفكرة التي تدفعهم اليوم على عقد الأحلاف بينهم أو مع غيرهم. وهي الضرورة والدفاع عن مصالح خاصة أو عامة، أي نفس الفكرة التي تدفع الدول على التكتل والتخرب وعقد الأحلاف الدولية، في هذا اليوم أو في المستقبل. وهناك أحلاف عقدت لأغراض هجومية، وأحلاف عقدت لمصالح اقتصادية، مثل أكثر أحلاف قريش مع القبائل. وأحلاف لتثبيت نظم وإقرار قوانين وأخذ حقوق وردع ظالم وإنصاف مظلوم[2].

لم يكن في مقدور القبائل أو العشائر الصغيرة المحافظة على نفسها من غير حليف قوي يشد أزرها إذا هاجمتها قبيلة أخرى، أو أرادت الأخذ بالثأر منها. لقد كانت معظم القبائل داخلة في هذه الأحلاف، إلا عدد من القبائل القوية الكثيرة العدد، وكانت تتفاخر بنفسها، أنها لا تعتمد على حليف يدافع عنها، بل كانت تأخذ بثأرها وتنال حقها بالسيف. ويشترك المتحالفون في الغالب في المواطن، وقد تنزل القبائل على حلفائها، وتكون الهيمنة بالطبع في هذه الحالة للقبائل الكبيرة[3].

وقد كانت هذه الأحلاف تدوم ما دامت المصالح متشابهة، فإذا اختل التوازن بين المتحالفين، أو وجد أحد الطرفين أن مصالحه تقتضي الانضمام إلى حلف آخر، فسخ ذلك العقد، وعقد حلفاً آخر، وحالف قبائل أخرى قد تكون معادية لقبائل الحلف السابق، ويقال لفسخ الأحلاف (الخلع).

١- د. عمر فروخ، العرب في تاريخهم وحضارتهم، ص ٦٨.

٢- المرجع السابق، ص ٣٧٢.

٣- جواد علي، ج٤، ص ٣٧٣.

وهكذا كانت الحياة السياسية في الجاهلية: أحلاف تتكون وأخرى قديمة تنحل. ولا سيما إذا كانت قد تكونت من قبائل لا رابطة دموية بينها ولا اشتراك في المواطن، وإنما كانت عوامل مؤقتة وأحوال طارئة اقتضت تكتلها، ثم اقتضت انحلالها لزوال تلك الأسباب.

هذا وقد عملت قريش على توفير الأمن والأمان في منطقة مكة، وهو أمر ضروري في بيئة تغلي بالغارات وطلب الثأر، حتى يكون البيت الحرام ملاذاً للناس وأمناً، وحتى يأمنوا على تجارتهم، ولعل هذا من أسباب حرص قريش على الحفاظ على حرمة الأشهر الحرم في موسم الحج، هذا فضلاً عن حركة إصلاحية مهمة وخطيرة في هذا المجال، مؤداها: لا يقر بمكة ظالم سواء أكان من أهلها أو من سائر الناس، فعقدت مع أهم بطونها، ومع غيرها من القبائل الأخرى المجاورة حلفاً عرف في التاريخ باسم «حلف الفضول»، قبل المبعث بعشرين سنة، وكان أكرم حلف سمع به الناس وأشرفه، وكان أول من تكلم به ودعا إليه «الزبير بين عبد المطلب» - عم النبي ﷺ - وكان سببه أن رجلاً من «زبيد» قدم مكة ببضاعة اشتراها منه العاصي بن وائل، وكان رجلاً مماطلاً سجماً، فحبس عن الزبيدي حقه، فاستعدى عليه بالأحلاف — عبد الدار ومخزوماً وعدي بن كعب - فأبوا أن يعينوه على العاصي بن وائل، وزبروه زبراً شديداً، فعلا الزبيدي جبل أبي قبيس، وقريش في أنديتهم حول الكعبة، فنادى بشعر يصف فيه ظلامته، فمشى في ذلك الزبير بن عبد المطلب، وقال: ما لهذا متروك، ومن ثم فقد اجتمع في دار «عبد الله بن جدعان»، بنو هاشم وبنو المطلب، وبنو أسد، وبنو زهرة، وبنو تميم، وتعاهدوا على: ألا يظلم بمكة غريب ولا قريب، لا حر ولا عبد، وإلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم، وعمدوا إلى ماء زمزم فجعلوه في جفنة، وبعثوا به إلى البيت الحرام، فغسلت به أركانه وشربوه، ومن عجب أن الأمويين وبني عبد شمس قد أبوا على أحد منهم أن يدخل في هذا الحلف، وقد روي عن النبي (ﷺ) أنه قال: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت إليه في الإسلام لأجبت»، وهكذا تحالف القوم على أن ترد الفضول إلى أهلها وألا يعز «يقهر» ظالم بمكة مظلوماً، ثم مشى المحالفون إلى العاصي بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي ودفعوها إليه[1].

١- ابن هشام ج١، ص ١٤٣-١٤٥.

ونظراً إلى ما للحلف من قدسية في النفوس، أصبح من المعتاد عقده في مراسيم مؤثرة ورد وصف بعضها في الأخبار، مثل حلف (المطيبين) الذي عقد في مكة بعد اختلاف بني عبد مناف وهاشم والمطلب ونوفل مع بني عبد الدار بن قصي، وإجماعهم على أخذ ما في أيدي بني عبد الدار مما كان قصي قد جعله فيهم من الجماعة واللواء والسقاية والرفادة، فعقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً، على ألا يتخاذلوا، ولا يسلم بعضهم بعضاً (ما بلَّ بحرٌ صوفةً)، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً، فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم، ثم مسكوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم، فسموا بالمطيبين، وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا، ولا يسلم بعضهم بعضاً، فسموا الأحلاف[1]. (والأحلاف ست قبائل: عبد الدار، وجمح، ومخزوم، وبنو عدي، وكعب، وسهم)[2].

ومن تلك الأحلاف، حلف لعقة الدم. وقد عقد على أثر تخاصم القبائل من قريش في وضع الحجر الأسود في موضعه. فلما استعدت للقتال (قربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيهديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسموا (لعقة الدم)[3].

ويظهر أن عقد الحلف بإدخال الأيدي في الدم من المراسيم المعروفة. وقد عرف قوم من بني عامر بن عبد مناة بن كنانة بلعقة الدم. وكانوا ذوي بأس شديد. وجاء أن خثعماً إنما سموا خثعماً لأنهم غمسوا أيديهم في دم جزور.

وكذلك عقد العرب أحلافهم على النار، نار التحالف. كانوا إذا تحالفوا وتعاهدوا أوقدوا ناراً ودنوا منها حتى تكاد تحرقهم. وعدوا منافع النار ودعوا على ناقض تلك اليمين، والناكث لذلك العهد بحرمانه من تلك المنافع، ويتصافحون عندها، ويقولون: الدم، الدم، والهدم، الهدم، والمعنى دماؤنا دماؤكم وهدمنا هدمكم، والهدم اسم البناء المهدوم، أي فما هدم لكم من بناء أو شأن فقد هدم

١- ابن هشام، المرجع السابق، ص ١٤٦.

٢- جواد علي، ج٤، ص ٣٧٨.

٣- ابن هشام ج١، ص ٢١٣.

لنا، وما أريق لكم من دم فقد أريق لنا، يلزمنا من نصرتكم ما يلزمنا من نصرة أنفسنا[1].

وتدون الأحلاف أحياناً لتوكيدها وتثبيتها،ـ وتحفظ عند المتعاقدين، وقد تودع في المعابد، كالذي روي في خبر (صحيفة قريش) يوم تآمر المشركون وتحالفوا على مقاطعة (بني هاشم) في شعبهم، إذ كتبوا صحيفة بما اتفقوا عليه، ثم أودعوها كما يقول أهل الأخبار جوف الكعبة، وكالذي ورد من تحالف ذبيان وعبس وتدوينهم ما تحالفوا عليه في كتاب، وتعاهدوا وأقسموا على اتباع ما كتب فيه، والعمل به، وإلى ذلك أشير في شعر قيس:

لعمري لقد حالفت ذبيان كلها وعبساً على ما في الأديم الممدد

ونجد في شعر زهير:

ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة وذبيان: هل أقسمتم كل مقسم؟[2]

وإذا أراد المتحالفون إنهاء حلفهم وعهدهم الذي تعاهدوا عليه بينهم، أعلنوا عن ذلك، وكتبوا به كتاباً، ليكون مشعراً بتخالعهم، وأنهم نقضوا الحلف الذي كان بينهم، فتسقط بذلك كل مسؤولية تولدت عن الوفاء بذلك الحلف أو العهد، فلا يطالب طرف الطرف الثاني بالوفاء به. ورد في كتب اللغة: وتخالفوا: نقضوا الحلف والعهد بينهم وتناكثوا[3].

العصبية:

وأساس النظام القبلي هو العصبية، العصبية للأهل والعشيرة وسائر متفرعات الشعب أو الجذم أو القبيلة، أو العشيرة. ومن شروطها أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوئهم، ظالمين كانوا أو مظلومين، وليس له أن يتساءل: أهو ظالم أو مظلوم، وهي ضرورية للقبائل، لأنها لا تستطيع أن تدافع عن نفسها إلا إذا كانت ذات عصبية ونسب، وبذلك تشتد شوكتها، ويخشى جانبها، كما أنه لا يمكن وقوع العدوان على أحد مع وجود العصبية، وتقوم العصبية على النسب، وهي

١- سليم الحوت، في طريق الميثولوجيا عند العرب، دار النهار، بيروت ١٩٨٢، ص ١١٧.

٢- جواد علي، ج٤، ص ٣٨٢.

٣- المصدر السابق، ص ٣٨٩.

تختلف لذلك باختلاف درجات تقارب الأنساب، ولذلك نجد عصبيات مختلفة. وتشمل العصبية الصرحاء والموالي والجيران[1].

وكانت تقاليد العصبية على أشكال متعددة:

١- كان هناك عصبية الأقارب وذوي الأرحام أو ما يسمى عصبية العشيرة أو الفصيلة الخاصة، حيث كان أفراد كل عشيرة يتضامنون في الدفاع عن بعضهم والانتصار لبعضهم في مختلف المواقف والمصالح ويكون من واجب كل فرد أن يحمي وأن ينتصر لأي فرد من أفراد عشيرته وفصيلته الخاصتين إذا وقع في مأزق أو وقع عليه عدوان وأن يثأر له من المعتدي أو من عشيرته وفصيلته الخاصيتين ويكون ثأر ما اجترحه أحد من عشيرة ضد آخر من عشيرة أخرى من عدوان أو قتل أو ظلم مطلوباً من أي فرد من عشيرة المعتدي ويكون من واجب كل فرد أن يشترك في الديات والمغارم التي تلزم عشيرته نتيجة لعدوان ما وقع من أحد أفراد عشيرته ويكون من واجب كل فرد من أفراد العشيرة أو الفصيلة الخاصة منفردين ومجتمعين التضامن في الدفاع عن سمعة عشيرته وشرفها ومصلحتها المشتركة والانتصار لها ممن يكون قد اعتدى عليها أو من عشيرته قولاً أو فعلاً وبكلمة واحدة كان أبناء العشيرة يتناصرون ظالمين أو مظلومين حتى ولو كانوا متغايري العقيدة والميول ضد من يقع منهم على أحدهم عدوان ما من عشيرة أخرى ولو كان بينهم وبين هذه العشيرة مصاهرة وخؤولة أو كانوا ينتسبون إلى جد واحد.

٢- وكان هناك عصبية القبيلة وهي الوحدة التي تتألف من بطون وعشائر عديدة يجمعها جد بعيد، حيث كان أفراد كل قبيلة يتضامنون تجاه القبائل الأخرى في الحروب والدماء والدفاع عن المصالح والتبعات المشتركة ويتعاونون على المسؤوليات والديات والمغارم ويعتبر كل فرد من القبيلة أي اعتداء يقع على أحد أفراد قبيلته فعلاً أو قولاً واقعاً عليه ومن واجبه الانتصار له والدفاع عنه والثأر من المعتدي أو من أي فرد من أفراد قبيلته ويكون من واجب كل فرد وكل حمولة وكل فصيلة وكل بطن من القبيلة أن يتضامن مع القبيلة في الدفاع والهجوم في حال القتال مهما كان الباعث حتى ولو كانت ميول العشائر التي تتألف منها القبيلة متغايرة.

١- جواد علي، ج٤، ص ٣٩٢.

٣- وكان هنالك عصبية التحالف القبلي أو ما يمكن أن يسمى عصبية الأحزاب، حيث كان كثيراً ما تعقد قبيلتان أو أكثر بينهما حلفاً وميثاقاً على أن تكون صفاً واحداً متسانداً في الدفاع والهجوم في حالة القتال وفي حماية مصالحهم المشتركة أو المتقابلة فتنشأ نتيجة ذلك عصبية بين القبائل المتحالفة توجب عليهم التضامن في الحروب والتعاون في حماية مصالحهم وفي ما يترتب على بعضهم من مغارم وديات. فإذا ما دعا داعي الحرب نفر أفرد هذه القبائل ليكونوا صفاً واحداً. وإذا اعتدى معتد على إحدى هذه القبائل أو ما ينضوي فيها من بطون وفصائل وعشائر هبت القبائل المتحالفة معها إلى الانتصار لها، وإذا تحملت دماء رأت من حقها أن تستعين على حملها بحلفائها من القبائل الأخرى[١].

٤- وكان هناك عصبية الولاء حيث كان يلتحق بطن أو عشيرة من قبيلة بعشيرة أو بطن من قبيلة أخرى. بل يصدق أن تلحق قبيلة برمتها بقبيلته أخرى التحاقاً كاملاً فيقطع الملتحقون علاقتهم وتبعاتهم من قبيلتهم الأولى ويصبحون موالي القبيلة الجديدة ويكونون فيها كأنهم منها في التناصر والدفاع والهجوم والدماء والديات والمصالح المتنوعة.

وقد يكون الولاء فردياً حيث كان كثيراً ما يلتحق فرد من قبيلة بشخص من قبيلة أخرى ويتولاه أي يتفق معه على الانتساب إليه والتناصر معه فيصبح كأنه من ذوي رحمه وقبيلته ولاء ويكون عليه تبعات عصبية الملتحق به وله حق هذه العصبية على هذا[٢].

٥- وكان هناك عصبية الجوار حيث كان من عادة العرب أن يطلب شخص من آخر أن يجيره أي يجعله في حمايته ويمنع عنه البغي والظلم والعدوان فإذا قبل المستجار به أن يجير المستجير أعلن ذلك على ملأ الناس ليكونوا على بينة من الأمر وأصبح المستجير في ذمته و«جواره» كأنه من ذوي رحمه أو عشيرته أو قبيلته.

ويتمتع بحمايته بما يحمي به أسرته أو قبيلته ويصبح على كل من يتضامن مع المجير عصبية من عشيرته وقبيلته واجب حماية المستجير الذي أصبح جاراً لهم بعد أن يكون رئيسهم قد أجاره.

١- محمد عزة دروزة، تاريخ الجنس العربي، ج٥، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٦١، ص ٢٤٣-٢٤٤.

٢- المرجع السابق، ص ٢٤٦-٢٤٧.

٦- وهناك عصبية التقاليد. وهذا النوع ليس مما كان معروفاً بهذا الوصف وإنما كان معروفاً بمفهومه. والمقصد منه هو التعصب للعادات والتقاليد المتوارثة وشدة التمسك بها وكان هذا راسخاً في المجتمع العربي قبل الإسلام معدوداً من الفضائل[1].

فالعصبية: أن يدعو الرجل عصبته إلى نصرته. وهي (النصرة على ذوي القربى وأهل الأرحام، أن ينالهم ضيم أو تصبيهم هلكة).

وفي هذا المعنى أيضاً ورد قول الشاعر، قريط بن أنيف، حيث يقول:

قومٌ إذا الشر أبدى ناجذيه لهم   طاروا إليه زرافات ووحدانا

لا يسالون أخاهم حين يندبهم   في النائبات على ما قال برهانا

وللعصبية صلة كبيرة بالمسؤولية وبالعقوبات. فعلى درجة العصبية تقع المسؤولية. فأقرب الناس إلى الجاني، يكون أول من يتناوله الأخذ بالثأر، ثم الأبعد فالأبعد. ومن هنا كان الطالبون للثأر يبدؤون بالجاني أولاً. فإن فاتهم أخذوا أقرب الناس رحماً به، فإن فاتهم أخذوا الذي يليه أو من هو في درجته وهكذا.

وكلما بعدت العصبية عن دم الأبوين، خفت حدتها، وطبيعي ألا تكون العصبية إلى القبيلة مثل العصبية إلى الأهل في الشدة. ولهاذ فإن العصبية ترتبط بدرجة الدم والتحام النسب ارتباطاً طردياً. وهذا شيء طبيعي، وهو حاصل هذه الحياة.

وجرثومة العصبية، العصبية للدم، وأقرب دم إلى إنسان هو دم أسرته وعلى رأسها الأبوان والأخوة والأخوات ثم الأبعد فالأبعد، حتى تصل إلى العصبية للقبيلة. ولهذا تكون شدة العصبية وقوتها تابعة لدرجة قرب الدم والنسب وبعدهما. فإذا ما حل حادث بإنسان، فعلى أقرب الناس دماً إليه أن يهب لإسعافه والأخذ بالثأر ممن ألحق الأذى بقريبه. ولهذا صارت درجات العصبية متفاوتة بحسب تفاوت الدم ومنازل النسب.

وآخر مرحلة من مراحل العصبية، العصبية للقبيلة، والعصبية للحلف، أو العصبية للنسب الأكبر، وذلك في حالة تكتل القبائل وتخاصمها كتلاً. وتكون العصبية للقبيلة أقوى من العصبية للحلف أو النسب الأكبر مثل معدّ أو نزار أو حمير أو ما شاكل ذلك، وذلك لشعور أبناء القبيلة بأن الرابطة التي تربطهم هي رابطة الدم،

١- محمد عزة دروزة، تاريخ الجنس العربي، ج٥، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٦١، ص ٢٤٨-٢٥٠.

والدم أبرز وأظهر في القبيلة من رابطة الحلف أو رابطة النسب الأكبر، ولا سيما رابطة الحلف، فإنها رابطة مصلحة في الغالب لا رابطة دم، والشعور بروابط المصالح لا يكون مثل الشعور بروابط الدم[1].

وتشمل العصبية أهل المدر كذلك، فأهل المدر وإن تحضروا واستقروا وأقاموا في بيوت ثابتة، إلا أن نظامهم الاجتماعي والسياسي بني على العصبية أيضاً، فتألفت المدن والقرى من (شعاب)، وتكونت الشعاب من جماعات بينها روابط دم ووشائج قرابة. والشعب هو وحدة، وهو الذي يأخذ بحق المظلوم من الظالم، وبظلامة من تقع عليه ظلامة. وغالباً ما تكون بين الشعاب المتجاورة قرابة وصلة رحم، وإذا حدث حادث لهذه الشعاب، هبت للنظر فيه واتخاذ ما ينبغي اتخاذه من موقف، ثم تكون عصبية الشعاب للمدينة أو للقرية ثم إن سكان هذه المدن وإن تحضروا واستقروا كانوا يرجعون أنفسهم كأهل الوبر إلى قبائل وعشائر. فهم إذن أعراب من حيث التعصب والأخذ بالعصبية، واختلافهم عن الأعراب، هو في استقرارهم وفي عيشهم في محيط ضيق محدود وفي خطط مثبتة مرسومة[2].

الملأ والنادي:

من المعروف أن مجتمع الحواضر كان ينقسم إلى قسمين:

١- القبيل أو الجماعة، وهم جمهور القبيلة وعامتها.

٢- الملأ وهم علية القوم وأشراف القبيلة وكبار أعيانها. وهم السادة والكبراء. وهؤلاء الملأ هم الطبقة التي تكون حول الملك يأخذ برأيهم ويقتدي القوم بهم أو يخضعون لنفوذهم.

والنادي والندوة والمنتدى والندي مجلس القوم الذي يجتمع فيه الملأ لتصريف شؤون البلاد أو شؤون القوم (القبيل).

وكان نادي أهل مكة يدعى (دار الندوة) فيما جاء في الأخبار. أما في القرآن الكريم فإن اسمه «النادي»[3].

١- جواد علي، ج٤، ص ٣٩٣-٣٩٤.

٢- المصدر السابق، ص ٣٩٤-٣٩٥.

٣- د. عمر فروخ، العرب في تاريخهم وحضارتهم، ص ٧٥-٧٦.

ويبدو أنه كان لكل مدينة وكل قبيلة نادٍ على مثال نادي قريش في مكة. ووصول الملأ إلى النادي وتصريفهم للأمور لا يجريان على نهج مرسوم ولا على قانون موضوع. إن دخول النادي أمر عشائري: كلما عظم شأن الرجل بالجاه أو الغنى أو بالبطش دخل إلى النادي وأصبح من الملأ الذين يحكمون قومهم.. وطريقة الحكم وطريقة الحكم في النادي عشائرية: يحكم الملأ كما يتفق لهم أن يشاؤوا، يحكمون على حسب ما يرون من المصلحة أو على هواهم. وليس من الضروري أن يجتمع الملأ في النادي ليتفقوا على ما يجب فعله، بل قد يفصل أحدهم في أمر ما، في النادي أو في السوق أو في بيته، ثم لا يجد من يخالفه من رفاقه لأنهم كلهم يسلكون هذا السبيل. والنادي ليس داراً للحكم فقط، بل لجميع الشؤون: فيها يجري إعلان الحرب، ومنها يبد أسير المحاربين إلى المعركة، وفيها يعقد زواج كل رجل وامرأة، وفيها تدرَّع الفتيات إذا بلغن سن الحلم (يشق عنها ثوب الطفولة ثم تكسى ثوب النساء)[1].

كان الملأ هو الأداة الحكومية الوحيدة في مكة قبل الإسلام وهو عبارة عن مجموع يضم رؤساء جميع بطون قبيلة قريش ورجال الوجاهة فيها. وسلطة هذا المجمع سلطة أدبية وليس له أي قوة تنفيذية، وذلك لأنه من ناحية المبدأ كان لكل بطن استقلاله وحريته في التصرف. وبذلك لا تكون أوامر الملأ نافذة إلا إذا كانت بالإجماع وبرضى رؤساء جميع البطون بما فيهم البطن موضوع المشكلة أما إذا كانت أوامر «الملأ» غير موافق عليها جماعياً فإن تنفيذها يرجع إلى حرية البطون ومدى موافقتها على قرار الملأ. وكانت قوة مكة مستمدة إلى حد بعيد من استطاعة قادتها على الاتفاق على رأي موحد حيال الأزمات التي تتعرض لها، ومقدار ما يقدمه المخالفون من تنازلات إزاء الصالح العام. وإلى جانب الملأ وهو المجلس المركزي للقبيلة بكاملها، كانت هناك مجالس خاصة بالعشائر أو البطون، وتجتمع هذه المجالس لمناقشة القضايا الخاصة، كما حدث مثلاً حين دعا أبو طالب بني هاشم والمطلب ليقفوا صفاً واحداً في نصرة (محمد) حين آذته بقية بطون قريش واعترضت على دعوته. ولهذه المجالس أماكن للاجتماع وتدعى بالنوادي[2].

١- د. عمر فروخ، العرب في تاريخهم وحضارتهم، ص ٧٦-٧٧.

٢- د. نبيه العاقل، تاريخ العرب القديم، ص ٢٢٤.

وكان مجلس الملأ يعقد في دار الندوة التي أنشأها قصي بن كلاب قرب الكعبة، وكان يتم فيها البت في جميع الشؤون العامة من تجارة وحرب، وعقد المعاهدات والاتفاقات وتجهيز القوافل. كذلك كان يتم في هذه الدار كثير من الأمور الخاصة كعقود الزواج والاحتفال ببلوغ البنات سن الحلم. وما عدا أبناء قصي كان لا يدخل دار الندوة من قريش إلا من بلغ سن الأربعين.

ويتفرع عن رئاسة قريش ويتصل بها بعض الوظائف المهمة، وكانت هذه الوظائف كلها في الأساس من اختصاص قصي، وقد قرر قصي قبل أن يتوفى أن يعهد بوظائفه كرئاسة دار الندوة واللواء والسقاية والحجابة والرفادة إلى ابنه الأكبر عبد الدار. وفعلاً فقد قام عبد الدار بهذه الوظائف كلها بعد وفاة أبيه وخلفه فيها أبناؤه. وقد نازعهم عليها أولاد عمهم عبد مناف، وكاد ينشب قتال مرير بين الطرفين اللذين تمثلا في حلف المطيبين، ولعلاقة الدم التي تربط بين الطرفين اللذين انتهيا إلى الاتفاق على أن تكون لبني عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة واللواء ودار الندوة إلى بني عبد الدار.

وكان عبد شمس بن عبد مناف الذي آلت إليه السقاية والرفادة، فقيراً كثير العيال فتنازل عن هاتين الوظيفتين لأخيه هاشم الذي كان موسراً يستطيع الاضطلاع بنفقاتهما. ولم تزل دار بن الندوة في يد بني عبد الدار حتى باعها عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار قصي إلى معاوية داراً للإمارة.

ويجدر بنا، عند هذا الحد من حديثنا أن نتوقف قليلاً لنتعرف على المهمات المتعلقة بهذه الوظائف والواجبات الملقاة على المسؤول عنها لأنها جميعاً ذات صلة بالرئاسة السياسية لمكة، ولأنها انبثقت من المركز الديني المهم لهذه المدينة بالنسبة لعرب الحجاز[1].

١- الحجابة:

كان القائم بالحجابة يمتلك مفاتيح الكعبة، فهو الذي يأذن للناس بالدخول إليها ولا تقام شعائر دينية إلا بإذنه، وليس هناك من دليل على أنه كان يفترض فيمن

١- د. نبيه العاقل، تاريخ العرب القديم، ص ٢٢٤-٢٢٥.

يقوم بها أن يكون عالماً بالشؤون الدينية أو له صفة الكهانة. وقد أخذ قصي الحجابة من خزاعة وسلمها بعده لابنه عبد الدار ومن بعده لأبنائه.

٢- الرفادة:

ويقول عنها الطبري ما يلي: هي «خرج تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب، فيصنع به طعاماً للحجاج. يأكله من لم تكن له سعة ولا زاد ممن يحضر الموسم. وذلك لأن قصياً فرضه على قريش فقال لهم حين أمرهم به: يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته الحرام وإن الحجيج ضيف الله وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام هذا الحج حتى يصدروا عنكم.

ففعلوا، فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم فيدفعونه إليه فيصنعه طعاماً للناس أيام منى. فجرى ذلك من أمره على قومه في الجاهلية، حتى قام الإسلام، ثم جرى في الإسلام إلى يومك هذا، فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام بمنى حتى ينقضي الحج»[1]. فكان كل إنسان يدفع مقداراً من المال من أجل طعام الرفادة يتناسب وثروته وكانت هذه الوظيفة كما ذكرنا، لبني عبد الدار ثم آلت إلى هاشم.

٣- السقاية:

وهي جمع الماء من آبار مكة المختلفة على الإبل في المزاود والقرب وسكبه في حياض من أدم توضع في فناء الكعبة فيرده الحجيج ويستقون منه. وكان قصي قد حفر بمكة آباراً عديدة لحل أزمة مياه الشرب التي كانت تشكو منها مكة، وسار على سنته في حفر الآبار وتقصي مواقع المياه هاشم بن عبد مناف الذي آلت إليه السقاية إلى جانب الرفادة من بعده. ولم يزل هاشم يقوم بهذه الوظيفة حتى مات، فقام بها من بعده ابنه عبد المطلب الذي حفر بئر زمزم التي أصبحت مشرب الحجاج. ولبث عبد المطلب يسقي الناس حتى توفي فقام بأمر السقاية بعده العباس بن عبد المطلب. وكان للعباس كرم بالطائف يأخذ زبيبه ويضيفه إلى ماء زمزم لسقاية الحجاج[2].

١- الطبري، ج٢، ص ٢٦٠، نقلاً عن نبيه العاقل، تاريخ العرب القديم، ص ٢٢٦.

٢- المصدر السابق، ص ٢٢٦.

٤- اللواء:

وليس لهذه الوظيفة صبغة دينية، بل تتعلق بشؤون الحرب. واللواء هو العلم الذي يحمل في المعارك ويدافع عنه أفراد القبيلة حتى الموت. وكان اللواء لبني عبد الدار، وقد قتل سبعة منهم وهم يدافعون عنه أثناء غزوة أحد.

الطبقات الاجتماعية:

كان المجتمع القبلي في الجاهلية ينقسم إلى ثلاث طبقات:

طبقة القبيل أو جمهور أبناء القبيلة الصرحاء، وطبقة الموالي الذين اندمجوا في القبيلة عن طريق الحلف أو الجوار، ثم طبقة العبيد والرقيق.

أما طبقة الصرحاء فهم أبناء القبيلة الذين يرتبطون فيما بينهم برابطة الدم، وهم جمهور القبيلة ودعامتها، وكانوا يهبون لتلبية نداء القبيلة والتضامن معها ظالمة أو مظلومة. والقبيلة نظير ذلك تسبغ عليهم حمايتها، وتمنحهم حق التصرف كالإجارة، ولكنها لا تبيح لهم الخروج على العرف والتقاليد. فإذا سلك الفرد سلوكاً شائناً يسيء إلى سمعة القبيلة، ويجلب عليها العار، نبذته قبيلته، وأخرجته منها، فيعتبر خليع قبيلته، وعندئذ يلجأ إلى قبيلة أخرى، فيعتبر جاراً أو مولى من مواليها، أو يلجأ إلى الصحراء، ويعيش على قائم سيفه وحد نصله، ويصبح صعلوكاً من صعاليك العرب، أو مغامراً، ليتخلص من شقاء الفقر، وذل الفاقة، إذا كان أبي النفس ذا أنفه. يقول طرفة في معلقته وفيه سبب خلعه:

وما زال تشرابي الخمور ولذتي ... وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي

إلى أن تحامتني العشيرة كلها ... وأفردت إفراد البعير المعبد

أما طبقة الموالي، فيدخل فيها الحلفاء وهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم وفصلتهم عنها وتبرأت منهم لجرائم ارتكبوها، ثم دخلوا في قبيلة أخرى على أساس الموالاة. كما يدخل فيها الصعاليك المغامرون، والعتقاء، الذين كانوا في الأصل عبيداً ثم أعتقوا[1].

وكان لهؤلاء الموالي سواء كانوا حلفاء أو عتقاء حقوق أفراد القبيلة نفسها التي يوالونها وعليهم الواجبات نفسها، ولكن رابطة الجوار كانت موقوتة، فهي تبقى ببقاء

١- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ شبه الجزيرة العربية، ص ٣٨٣-٣٨٤.

الجار في كنف مجيره، وتحل بخروجه، وفي هذه الحالة يعلن المجير أنه في حل من حمايته. لكن رابطة تبقى، فهي رابطة قوية غير مؤقتة، وكانت هناك أحلاف فردية وأحلاف جماعية... كما ذكرنا سابقاً.

أما طبقة الرقيق فكانت تؤلف طبقة كبيرة في المجتمع الجاهلي. والرقيق إما أبيض وإما أسود، ومعظمهم يشترى في الأسواق، وبعضهم يجلب من أسرى الحروب. وكان العدد الأعظم من الرقيق عبيداً سوداً يعرفون بالأحابيش يستقدمون من الحبشة أو السودان، ولكن بعضهم كان من بين الأسرى في الحروب روماً كانوا أم فرساً، وكان أبناء الإماء البيض من آباء عرب يعرفون بالهجناء، أما أبناء الإماء السود، فيطلقون عليهم اسم: «أغربة العرب»، ومن هؤلاء عنترة بن شداد.

كانت طبقة العبيد في المجتمع الجاهلي محرومة من الامتيازات، ومثقلة بالواجبات نحو ساداتها، وكان يوكل إليهم بالأعمال التي يأنف العرب من القيام بها مثل الحدادة والحجامة والنجارة. وكان في إمكان العبد أن يعتق إذا قام بعمل خارق أو أدى خدمة عظمية لسيده تسوغ عتقه وتحريره[1].

وقد ارتبطت أعداد الرقيق بما يوازي توسع الحركة التجارية، وظل أثرهم مميزاً في هذه المدينة (مكة) من حيث سعة حجمهم وأهميتهم في الإنتاج، بحيث يندر أن تخلو دار فيها من عبيد يقتنيهم صاحب الدار، ولم يشذ عن القاعدة بعض كبار الصحابة في تملكهم لأعداد من العبيد. ويسخر المالكون عبيدهم، كبضاعة حية، في البناء والتجارة والتعدين وغيرها. أو يستخدمونهم كحرس لهم ومشرفين على إدارة مبيعاتهم، بينما تستخدم الإناث للترفيه من رقص وغناء وعزف على الأوتار أو العمل في الحانات وبيوت الدعارة لصالح مالكهن.

وفي كتب السير وكتب تراجم الصحابة أسماء جواري يونانيات أو من بلاد الشام أو العراق، وقد تزوج بعضهن وأنجبن قبل الإسلام. وأصبحت بمكة جالية مميزة من الأرقاء من أصل إفريقي عرفت بالأحابيش، وهي الأرخص ثمناً والأكبر عدداً على جانب ما استوردوا من الشمال، من بلاد الشام والعراق، يضاف إليهم الأسرى من

١- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ شبه الجزيرة العربية، ص ٣٨٥.

البيض الذين كانوا يقعون في أيديهم من الروم أو الفرس أو القبائل المغيرة على الحدود، كذلك مما كان يستورد من أسواق أوربا لبيعه في أسواق الشرق، فاختلفت أسعار تلك البضاعة حسب منشئها. وشكل مجموع الأرقاء أساساً في الاقتصاد المكي والنظام الاجتماعي فيها، فضلاً عن آثارهم اللغوية والثقافية وبخاصة إدخالهم المصطلحات الفارسية والرومية والحبشية إلى اللغة العربية.

وحيث كانت الحياة في المدينة «يثرب» مختلفة نسبياً عن مكة، بسبب ميل أهلها من الأوس والخزرج إلى حياة البداوة والخصومة والتقاتل، فقد تخصص اليهود فيها بعمليات الإقراض بالربا وبتجارة الأرقاء، وكان هؤلاء العصب الرئيسي لمن سماهم الرواة «بالساقطة» لتسقطهم الأخبار ونقلها إلى الروم عند ظهور الإسلام، ويأتون بتجارتهم من خارج الجزيرة إلى يثرب[1]. وإذا كان الاسترقاق في الجاهلية مختلفاً في سماته العامة عن العبودية الكدحية الشائعة، فإن جوهره الاستبدادي الاستغلالي ظل متماثل المحتوى، لصيقاً بالتراتبية الحادة التي تحكم أواصر المجتمع.

كذلك عرف المجتمع الزراعي أو شبه الزراعي في الجنوب نوعاً من المراتبية الأشد قسوة في معظم الأحيان، حيث ارتبط الرقيق بالأرض يباع ويشترى معها.

شكلت الغزوات بين القبائل العربية معيناً رئيسياً للرقيق العربي، وكان يسترق أسرى المهزومين، وتؤخذ أسيراتهم سبايا، ولا ينجو من هذا المصير أحد من القبيلة المبتلاة، زعيماً أو وضيعاً فيها، سوى من في قدرته على شراء نفسه. وقد يباع المأسورون في أسواق النخاسة، لذلك صارت غزوات «أيام العرب» مورداً من موارد الرزق عند المحاربين الشجعان الذين يتمكنون من أسر من يبرز لهم فيكون الاستعباد خيراً من القتل. وقد يقع القريب أسيراً في يدي قريب له، فيكون مملوكاً له، فلا تسقط صلة الرحم حق التملك، مما يعد إحدى متناقضات الوضع الاجتماعي وتعقيداته[2].

١- د. فاضل الأنصاري، العبودية (القر والمرأة بين الإسلام الرسولي والإسلام التاريخي) دار الأهالي، دمشق ٢٠٠١، ص ٤٠-٤٢.

٢- المرجع نفسه، ص ٤٣.

والفقر من الأسباب الأخرى للرق، وفي الروايات أن عوائل باعت أولادها من ذكور وإناث بسبب الفقر، أو عندما تستدين بالربا، أو تعجز عن تسديد القروض، وبهذا تزايدت أعداد الناس الذين يتحولون إلى العبودية، لا سيما عندما نشطت الأعمال المصرفية في المجتمعات المدنية التجارية مثل مكة ويثرب والطائف، وإلى درجة صارت معها أعداد «رق الوفاء بالديون» موازية لأعداد رق الأسر في المعارك. وقد جرت العادة في الإقراض بالفائدة أن يكون بضمانات مختلفة وصل بعضها درجة رهن الزوجة والأبناء، وصار من حق المرابي، في استعارة من حضارات مندرسة مجاورة، تشغيل الرهينات بغايا يستقطع ما يحصلن عليه من أصل الدين الذي يتضاعف بفضل من نسب الفائدة عنه والتي تصل أحياناً إلى مئة بالمئة سنوياً.

وهكذا كانت الحرب والسبي والشراء والفقر مصادر غزيرة للأرقاء من العرب، فانضم هؤلاء إلى قطعان العبيد والجواري والإماء بغض النظر عن المنبت أو القبيلة. وارتفعت مكانة النخاسين في المجتمع بالقدر ذاته الذي تضاعفت فيه ثرواتهم وصار لبعضهم منزلة لا تبارى، كما كان حال «عبد الله بن جدعان» نموذجاً صارخاً لتجار الرقيق في جاههم ونفوذهم، وقد أطلق عليه معاصروه لقب «حاسي الذهب» لثرائه واعتياده شرب الخمر في آنية من الذهب، كما تغنى بجوده الشعراء، ومنهم أمية بن أبي الصلت الذي قال فيه:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك؟ إن شيمتك الحياءُ

وصار بيته المنيف في مكة محجاً يطعم فيه العرب من حلوى «الفالوذج» ويطربهم بغناء القينتين (الجرادتان) في وقت أصبح فيه ذلك البيت مخزناً تحفظ فيه قريش أسلحتها وتعقد أحلافها الكبرى. ولم يكن ذلك عاراً أو مثلمة، لأن قيم المجتمع آنذاك لم تعب النخاسة أو تنتقص من أشخاصها. فليس غضاضة أن يكون ابن جدعان نخاس رقيق، وفي الوقت نفسه أحد أشراف الجاهلية، وأن تنعقد في بيته أبرز الأحلاف والاتفاقات بين السادة مثل حلف «المطيبين» لحل التنازع بين سادات قريش على مهمات الحجابة والرفادة والسقاية، و«حلف الفضول» وقد سبقت الإشارة إليه[1].

١- د. فاضل الأنصاري، العبودية (القر والمرأة بين الإسلام الرسولي والإسلام التاريخي) دار الأهالي، دمشق ٢٠٠١، ص ٤٤.

الأغنياء والفقراء:

كان من العرب في الجاهلية أناس عرفوا بالغنى وبالثراء وبكثرة المال. متخمون شبعون، سكنوا بيوتاً حسنة، زينوها بأثاث جيد وثير، ولبسوا ملابس الحرير والألبسة الجيدة المجلوبة من بلاد الشام واليمن، وأكلوا أكلات الأعاجم وتفننوا في الطبخ، وشربوا بآنية من ذهب وفضة وبلور.

وساهموا في قوافل تجارة مكة الجماعية. كما كانت لهم قوافل خاصة بهم، تأتي إليهم بأرباح طيبة. ومنهم من استغل ماله بالربا وبامتلاك الأرض لاستغلالها، كما فعلوا بالطائف، إلى غير ذلك من وسائل اتبعوها في جمع المال.

وكان منهم أناس ذوو حس وعاطفة، فعطفوا على المحتاج واطعموا الناس، رقة بحالهم أو طلباً للشهرة والاسم. فهم جماعة محسنة على كل حال وكان بينهم من لم يكن له قلب ولا حس، فلم يعرف محتاجاً أو فقيراً ولم يفهم معنى الإحسان على الفقير. فاشتط وأبى وقسا في رباه، ولم يتساهل فيه. ومنهم من أكل أموال اليتامى ومنع الماعون. وإذا باع أنقص في المكيال، ليزيد في ماله. وفي القرآن الكريم آيات في وصف حال هؤلاء الأغنياء، وتقريع لهم وتوبيخ على ما فعلوه:

﴿ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝ ﴾[1]

أي يدفع اليتيم عن حقه، ويقهره ويظلمه. وإنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار، ويقولون: «إنما يحوز المال من يطعن بالسنان، ويضرب بالحسام».

وكان منهم من يبخل بماله فلا ينفق منه على المحتاجين والمساكين. وكان منهم من يعتذر عن بخله وحرصه، ، فيقول:

﴿ . . . أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ . . . ﴾[2]

فنزلت هذه الآية:

﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾[3]

١- سورة الماعون: الآيات ١-٢.

٢- سورة ياسين: الآية ٤٧.

٣- سورة الحاقة: الآية ٢٤.

(وتوجه الذم إليهم. فيكون معنى الكلام: لا يفعلونه إن قدروا، ولا يحثون عليه إن عسروا).

وكان بين الجاهليين فقراء معدمون مدقعون لم يملكوا من حطام هذه الدنيا شيئاً. وكانت حالتهم مزرية مؤلمة. حتى ذكر أن منهم من كان يختار الموت على الدنيّة.

والدنيّة، أن يذهب إلى رجل فيتوسل إليه بأن يجود عليه بمعروف. ومنهم من اعتقد. والاعتقاد أن يغلق الرجل بابه على نفسه، فلا يسأل أحداً حتى يموت جوعاً. وكانوا يفعلون ذلك في الجدب. فالموت على هذه الصورة أسهل عندهم من الاستجداء.

ولم يكن في وسع كثير من الجاهليين الحصول على اللحم لفقرهم فكانوا يأتدمون (الصليب) وهو الودك. ودك العظام. يجمعون العظام ويكسرونها ويطبخونها، ثم يجمعون الودك الذي يخرج منها ليأتدموا به.

ولم يكن في استطاعة الفقراء أكل الخبز لغلائه بالنسبة لهم. لذلك عدّ أكله من علائم الغنى والمال. وكان الذي يطعم الخبز والتمر يعد من السادة الكرام.

وكان منهم من لا يستطيع شراء الملابس ليلبسها، فيستر جسمه بالأسمال البالية، وبالجلود، ويعيش متضوراً جوعاً.

ويظهر أن المخمصة، كانت شديدة، شدة حملت البعض على السطو على أموال الناس وعلى سرقة ما يجدونه أمامهم. ففزع من ذلك أهل مكة، وعمل زعماؤها على التفكير في اتخاذ أقسى العقوبات في حق السارق، فكان أن حكم (الوليد بن المغيرة) بقطع يد السارق، ذكر أنه كان أول من حكم بقطع يد السارق في الجاهلية فصار القطع سنة عندهم[1].

ولم تكن ظاهرة الصعلكة سوى نتيجة مباشرة لهذا الشكل من التمايز الاقتصادي والاجتماعي. وصعاليك العرب هم فئة من الفقراء لا يملكون شيئاً من وسائل الإنتاج أو الثروات، أفرزهم التمايز المشار إليه. فقد انسلخوا عن قبائلهم تعبيراً عن تململهم من الفقر والجوع والحرمان والشقاء والازدراء الذي كانوا يعانونه. وقد عبر

١- جواد علي، ج٥، ص ٨٠-٨٢.

عروة بن الورد أبو الصعاليك على واقع التفاوت في توزيع الثروة والتمايز الاجتماعي. قال عروة:

ذريني للغنى أسعى فإني ... رأيت الناس شرهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهم ... وإن أمسى له حسب وخير
ويقصيه الندي وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير[1]

والصعلوك في اللغة الفقير الذي لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة، ولم تقف هذه اللفظة في الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة، فقد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق. ويمكن أن نميز فيهم ثلاث مجموعات:

مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم، ومجموعة من أبناء الحبشيات السود، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السليك بن السلكة وتأبط شراً والشنفرى، وكانوا يشركون أمهاتهم في سوادهم فسموا هم وأضرابهم باسم أغربة العرب. ومجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء ولا أبناء الإماء الحبشيات، غير أنها احترفت الصعلكة احترافاً، وحينئذ قد تكون أفراداً مثل عروة بن الورد، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتي هذيل وفهم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالي.

تموج في نفوس الصعاليك ثورة عارمة على الأغنياء والأشحاء ويمتازون بالشجاعة والصبر عند البأس وشدة المراس والمضاء وسرعة العدو حتى ليسموا بالعدائيين، وحتى لتضرب الأمثال بهم في شدة العدو، فيقال: أعدى من السليك وأعدى من الشنفرى. وتروى عنهم أقاصيص كثيرة في هذا الجانب، من ذلك ما يقال عن تأبط شراً من أنه كان أعدى ذي رجلين وذي ساقين وذي عينين، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة، فكان ينظر إلى الظباء، فينتقي نظره أسمنها، ثم يجري خلفه، فلا يفوته، حتى يأخذه فيذبحه بسيفه، ثم يشويه فيأكله[2].

وكما كانوا يحسنون العدو كان كثير منهم يحسن ركوب الخيل والإغارة عليها، ويقال إنه كان للسليك فرس يسمى النحَّام، وللشنفرى فرس يسمى اليحموم،

١- ديوان عروة بن الورد، ص ٩١.

٢- د. شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٣٧٥.

أما اسم فرس عروة بن الورد فقرمل. وكانوا يغيرون أحياناً فرادى وأحياناً في جماعات. وكانت أكثر المناطق التي يغيرون عليها مناطق الخصب، وكانوا يرصدون طرق القوافل التجارية وقوافل الحجاج القاصدة إلى مكة، ومعنى ذلك أنهم كانوا ينتشرون حولها في جبال السراة، كما كانوا ينتشرون بالقرب من الطائف والمدينة وأطراف اليمن الشمالية ففي كل هذه الجهات يكثر هؤلاء الذؤبان من قطاع الطرق وقراصنة الصحراء. وهم في أشعارهم يتغنون بمغامراتهم ونراهم في أثناء ذلك يمتدحون بالكرم، كما نرى فيهم كثيراً من البر بالأقارب والأهل، وأيضاً فإننا نحس عندهم غير قليل من الترفع والشعور بالكرامة في الحياة، ويصور لنا ذلك أبو خراش الهذلي فيقول:

وإني لأثوي الجوع حتى يملني ... فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمي
واغتبق الماء القراح فأنتهي ... إذا الزاد أمسى للمزلج ذا طعم
أردُّ شجاع البطن قد تعلمينه ... وأوثر غيري من عيالك بالطعم
مخافة أن أحيا برغم وذلة ... والموت خير من حياة على رغم

فهو يفتخر لزوجه بأنه يصبر على الجوع، حتى ينكشف عنه، دون أن يلحقه فيه ضيم، وأنه ليكفيه الماء القراح بينما يتخم من حوله أشحاء النفوس بالطعام، أما هو فحتى إن وجد الطعام آثر به عياله وأولاده. وكل ذلك يصنعه حتى لا يوصم بعار الذل. وعروة بن الورد يعبر عن مثالية خلقية رفيعة لا تقل جمالية عن مثالية عنترة. وكأنما تحولت الصعلكة في أواخر العصر الجاهلي إلى نظام يشبه نظام الفروسية، وهي حقاً تقوم على السلب والنهب، ولكنهم كانوا لا يسلبون سيداً كريماً. وإذا قرأت الصعاليك فستجد للصعلوك مثالية في الحياة أو على الأقل ستجدين من بينهم من يصورون مستوى خلقياً رفيعاً من البر، وإن كان ذلك لا يمنع من أن فريقاً منهم عاش سفاحاً لا يرعى عهداً ولا ذمة[1].

١- د. شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٣٧٦-٣٧٧.